الفصل الثاني

الخلافة

- تطور نظرية الخلافة .
- الاسلام دين ودولة ـ الخليفة مقيد السلطات .
- منشأ مشروعية الخلافة ـ السلطة بين الخلافة والبابوية .
- واجبات الخليفة ـ تعريف الخلافة ـ شروط صحة الترشيح للخلافة .
- مبايعة الخلفاء . وفضلها على النظم المعاصرة .
- آثار أتاتورك على الخلافة ـ الصيغة المقترحة لاعادة الخلافة .
- الاسلام والترقى ـ علة التخلف .

obeikandl.com

obeikandl.com

الخـــلافة

● تطور نظـرية الخلافة :

قال « جوستاف جروينباوم » : وكان الطراز الوحيد من الحكام الذى عرفه العربى هو السيد « رئيس القبيلة » الذى يرجع فى رئاسته الى عراقة أصله وبعض الصفات الشخصية الهامة كالكرم والحكمة والشجاعة ، وعون الضـعفاء وقد حاول أمراء بنى أميـة (٦٦١ — ٧٥٠ م) = (٤٢ — ١٣٢ هـ) أن يحافظوا على آداب منصب السيد وصفاته المميزة ، وان كانت طبيعـة مركزهم من حيث هم حكام امبراطورية مترامية الأطراف ، وخلفاء للنبى وأمراء للمؤمنين ، قد عفت تماما على نظام المثل الأعلى القديم ومجاله .

ثم ولى العباسيون الخلافة بمعاضدة مسلمى الفرس خاصـة ، فبرزت الى المقام الأول فكرة الملكية التى كان الايرانيون قد مرنوا عليها فى عهد حكامهم الأصليين ، غير أن صفة الملك المحتجب عن الدهماء المنسوب الى الآلهة لم تكن قادرة على الاندماج فى شخصية « السيد العربى » .. ويلوح أن العباسيين حاولوا أن يظهروا ملكيتهم بأشكال تختلف باختلاف أقسام رعاياهم العديدة ، ومهما يكن فقد أقامت الدولة الاسلامية ولاية العرش على مبدأين ، فان الله لمـا لم يشأ أن تستمر النبوة بالنص على تنصيب خليفة روحى لمحمد (ﷺ) .. فانه قد صار المؤهل لمن يعتلى العرش أحـد أمرين :

١ — اما وشيجة رحم تربطه برسول الله (ﷺ) بدعوى أن قبسا من الهامة ، أو من العنصر الالهى الذى جعل منه صفيا لله — قد انتقل الى عقبه ، أو بعبارة أصرح أن محمداً (ﷺ) قد عين ابن عمه وزوج ابنته على بن أبى طالب « وصيا » له .

٢ — واما أن اجماع الأمة يكل الى أحـد المسلمين شئون الدولة

فيتولى اداراتها وأعباء الحكم فيها ، وقد فاز الرأى الأخير ولكن سرعان ما أدخل مبـــدأ الوراثة بحكم الأمر الواقع ، حتى اذا شدت التقاليد الفارسية أركانه ، لم يقـــدم أحد — فى مدة خمسة قرون أو تزيد — على محاولة تنحية العباسيين عن عرش الخلافة ، وهم أبناء عمومة النبى •

على هـــذه المقدمات تطورت نظرية الخلافة مؤلفة بين قوى التاريخ المتباينة ، هادفة الى تمجيد الدولة الاسلامية ، وعاملة على تمطيط الأحوال الواقعية حتى تتعادل ومطالب المثل الأعلى ومستلزماته •

ووجوب تنصيب خليفة للمسلمين أمر متفق عليه بالاجماع •• وقد فصل الفقهاء القول فى هـــذا تفصيلا[1] •

* * *

الاسلام دين ودولة

قالت الدكتورة « لورافا جليرى »[2] :

لقد قيل : ان المدنية الحديثة قد حققت كل هـــذا التقدم المزدهر فى أوروبا لأن المسيحية قد فصلت القوة المدنية عن القوة الدينية ، ولأن الدول الغربية متحررة من نفوذ الكنيســـة التى تمتعت به خلال قرون طويلة ، بينما لا يفصل الاســـلام بين الدين والدولة فكلاهما جزء من كل حسب الشريعة •

والاسلام الآن دين ودولة بكل ما فى الكلمة من معنى • فضلا عن أنه قد أظهر « الله » للناس ، فقد أنشأ أيضا حقوقا وواجبات • وأقر ضرورة تنفيذها بالسلطة الزمنية •

---

(١) حضارة الاسلام لجوستاف جروينباوم ص ١٩٩ — ٢٠١ — ثم تفصيل ما يتصل بالخلافة فى الصفحات ٢٠٢ الى نحو ٢١٧ .

(٢) تفسير الاسلام ص ٧٢ ، ٧٣ .

● **لا سلطة روحية للخليفة :**

وليس الخليفة لدى المسلمين زعيما دينيا أو معصوما من الخطأ • وهو لا يدعى أن الله يوحى له بعلمه ، ولا يدعى القدرة على شرح القرآن للمسلمين باعتباره واسطة بين الله والناس •

● **الخليفة مقيد السلطات :**

وعليه — لكى يكون قادرا على تحقيق العدالة — أن يلم بما يكفى من الشريعة للتمييز بين الحق والباطل ، ولكنه شأنه شأن باقى المسلمين فى فهمه للكتاب المقدس ، ولا طاعة له عليهم الا طالما بقى فى الحدود السليمة ، فان تخطاها حق لرعاياه تنبيهه الى واجبه وتحذيره ، فان سدر فى غيه [٣] كان لهم انتخاب خليفة جديد ، ويقول الرسول (ﷺ) فى أحد أحاديثه المشهورة : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » •

ولذلك فالخليفة حاكم مدنى من جميع النواحى • وليس حاكما دينيا يتلقى سلطانه من الله ، وتطيعه رعاياه نتيجة لايمانهم • ففى الاسلام ليس هناك الا قوة دينية واحدة — ان صح التعبير — هى القوة التى منحها الله لكل المسلمين من أحطهم الى أعلاهم ، وهى حض المؤمنين على العمل الصالح واجتناب المنكر ، وليس للقاضى والمفتى وشيخ الاسلام الا سلطات مدنية لا يستطيع أحدهم فرض سلطانه على عقيدة مسلم •

* * *

● **منشأ مشروعية الخلافة :**

وقال « باول شمتز »[٤] :

« كلمة خليفة معناها وكيل ، أو ممثل ، أو نائب • فكان النبى (ﷺ) يولى من يخلفه على المدينة اذا خرج فى غزواته ، وكان هذا الوالى يقوم بمهام النبى (ﷺ) وشبيه بهذا الظرف تعيين خليفة للنبى بعد موته

---

(٣) يقال سادر فى الغى : تائه ، والمراد استمر يتخبط .
(٤) الاسلام قوة الغد العالمية ص ١٥٦ وما بعدها .

ليرعى أمور المسلمين تأمينا لاستمرار نشر الدين وحفظا لكيان الدولة السياسى[٥] .

وبناء عليه نستطيع أن نطلق على الخلفاء كلمة مديرى المجتمع الاسلامى ، اتسع هذا المجتمع وانتشر الاسلام شرقا وغربا ، فأصبح لزاما على الخلفاء أن يباشروا سلطانهم على هذه الدولة المترامية الأطراف كحكام ، لأنهم اعتقدوا أن محمدا لم يقم ديناً فقط ، بل أسس دولة شملت كل ما يعرف للدولة من نظم .

١ — أقام جيشا قويا ، ودربه وسلحه وأعده اعدادا كاملا ، ليدافع عن الدين الجديد .

٢ — كان محمد (ﷺ) حاكم هذه الدولة .

٣ — رسم لأتباعها طريقهم فى الحياة الدنيوية ، الذى يوصلهم الى نجاح فى الحال ، وفلاح فى المآل .

● السلطة بين الخلافة والبابوية :

غير أن الخلفاء لم يكن لهم سوى السلطة الدنيوية ، فهم ينفذون ما شرعه النبى (ﷺ) ويضبطون أمور الدولة طبقا للشريعة الاسلامية ، لم يمارسوا فيها سلطة فردية « أوتوقراطية » ، ولم يتمتعوا بمكانة روحية عند المسلمين كتلك التى يتمتع بها بابا الكنيسة الرومانية عند المسيحيين ، اذ يحتل البابا المركز الروحى الأول فى الكنيسة ، فقد طبقت الشريعة على الخليفة وعلى المسلم الذى لا يحتل أى مركز اجتماعى ، سواء بسواء ، لا فرق بين عظيم وحقير ولا بين غنى وفقير[٦] .

---

(٥) وتبلغ أهمية اقامة خليفة للمسلمين الى حد أن كان لها الأولية على دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجى فى بيت عائشة رضى الله عنها .

(٦) الاسلام قوة الغد العالمية ص ١٥٦ وما بعدها .

وحضارة الاسلام لجوستاف جروينباوم ص ٢٠٤ ط الألف كتاب — والماوردى فى الأحكام السلطانية ص ٢٣ ، ٢٤ .

ولم يحدث فى تاريخ الاسلام أن ارتبط مقام الخلافة بالسلطة المطلقة ، أو بسلطة احداث تشريع جديد ، كما ارتبط ذلك بالبابوية الرومانيـــة .

* * *

● واجبات الخليفـــة :

قال « شمتز » و « جوستاف جروينباوم » : ويحسن فى هذا المقام أن نورد ما قاله « المـــاوردى » أحـــد علمـــاء المســـلمين فى القـــرن الحادى عشر الميلادى — أى فى عصر ازدهار الخلافة — عن واجبات الخليفة — قال فى كتابه « الأحكام السلطانية » : يجب على الخليفة :

١ — حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما جمع عليه سلف الأمة ، فان نجم[٧] مبتدع ، أو زاغ ذو شبهة أوضح له الحجة ، وبين له الصواب ، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ليكون الدين محروسا من خلل ، والأمة ممنوعة من زلل .

٢ — تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين ، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ، ولا يضعف مظلوم .

٣ — حماية البيضة ، والذب[٨] عن الحريم ، ليتصرف الناس فى المعايش وينتشروا فى الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال .

٤ — اقامة الحدود لتصان محارم الله — تعالى — عن الانتهاك ، وتحفظ حقوق عباده من أى اتلاف واستهلاك .

٥ — تحصين الثغور بالعدة المـــانعة والقوة المدافعة حتى لا تظهر الأعـــداء بقوة ينتهكون فيهـــا محرما ، أو يســـفكون فيهـــا لمســـلم أو معاهد ، دما .

٦ — جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم ، أو يدخل فى الذمة ، ليقام بحق الله (تعالى) فى اظهاره على الدين كله .

---

(٧) نجم : ظهر .

(٨) الدفاع .

٧ ــ جباية الفيء ، والصدقات ، على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا ، من غير خوف ولا عسف .

٨ ــ تقدير العطايا وما يستحق فى بيت المال من غير سرف ولا تقتير ، ودفعه فى وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .

٩ ــ استكفاء الأمناء[٩] ، وتقليد النصحاء[١٠] فيما يفوضه اليهم من الأعمال ، ويكله اليهم من الأموال لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة ، والأموال بالأمناء محفوظة .

١٠ ــ أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور ، وتصفح الأحوال لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة ولا يعول على التفويض ، تشاغلا بلذة أو عبادة ، فقد يخون الأمين ويغش الناصح وقد قال الله تعالى : **« يا داوود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله »**[١١] فلم يقتصر الله سبحانه على التفويض دون المباشرة ، ولا عذره فى اتباع الهوى حتى وصفه بالضلال ، وهذا وان كان مستحقا عليه بحكم الدين ومنصب الخلافة ، فهو من حقوق السياسة لكل مسترع ، قال النبى ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

● تعريف الخلافة :

لم تكن مهمة الخلفاء دينية ولا اقتصرت سلطاتهم حتى فى العصر الذهبى على الناحية الفكرية والروحية ، فالخلافة هى : الواجهة السياسية التى توضح نظرة الاسلام الى الحياة وموقفه من قضية الوجود ودعوته فى المجتمع العالمى .

* * *

---

(٩) أى اختيار ذوى الكفاية الأمناء .

(١٠) أى اختيار الكفاءات المخلصة للرعية لتولى المسئولية .

(١١) سورة ص : ٢٦ .

● **ما الفرق بين الخلافة والنظم الوضعية :**

وقال « جورجى زيدان »[١٢] :

« الخلافة ضرب من الملك خاص بالاسلام لم يكن فى سواه من قبل ، تمتاز عن سلطة القياصرة والامبراطورين والأكاسرة بأن الخلافة تشمل السلطتين الدينية والدنيوية ، فتحمل الكافة — جميع الرعية — على مقتضى النظـر الشرعى [١٣] فى مصـالحهم الأخروية والدنيوية الراجعـة اليها •

وأما تلك — نظم القيصر وكسرى والامبراطور — فتنحصر فى حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ، ويحكم فيهم حكامهم حكما مطلقا •

وأما الخلافة فانها مقيدة بقوانين دينية شرعية يسوس الخليفة بها أمته ، ويحمل الناس على أحكامها بالنيابة عن النبى صاحب تلك الشريعة ، وقد سموا الخليفة اماما تشبيها بامام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به •

● **شروط صحة ترشيح الخلافة :**

للخلافة شروط أربعة يشترط توافرها فى الخليفة وهى : العلم ، والعدالة ، والكفاية ، وسلامة الحواس •

واختلفوا فى شرط خامس وهو النسب القرشى — أى ألا يقوم خليفة الا من قبيلة قريش — وكان هذا الشرط مرعيا كل الرعاية فى سـائر أحوال الدولة الاسلامية • وأول من تولى الخلافة الاسلامية من غير قريش السلطان سليم الفاتح العثمانى سنة ٩٢٢ هـ • وحجة الأئمة الحنفية فى صحة خلافة بنى عثمان أن الخليفة يتولاها بخمسة حقوق :

١ — حق السيف : ومعنى ذلك أن طالب الخلافة يجب أن يقوم

---

(١٢) تاريخ التمدن الاسلامى جـ ١ ص ١٢٧ وما بعدها •

(١٣) اى ما تدل عليه النصوص الشرعية •

بدعوته أنصار لا يقوى عليهم مناظر آخر على وجه الأرض ، وقد كان ذلك شأن السلطان سليم بعد فتح مصر •

٢ — حق الانتخاب : أى مصادقة أهل العقد ، وهو مجلس من الأئمة والعلماء ••• فلما فتح السلطان سليم مصر حمل معه جماعة من علماء الأزهر ، وأضاف اليهم عـــدة من علمـــاء الأتراك • وألف من الفئتين مجلسا صادق على انتخابه وسلموه السيف • وكانت هـــذه هى العادة الجارية فى تقليد الخلفاء العثمانيين السيف من أيدى العلماء • وكانوا يفعلون ذلك فى جامع أيوب بضواحى الآستانة •

٣ — الوصاية : وهى وصاية الخليفة لمن يخلفه بعد موته ، وقد أوصى المتوكل آخر خلفاء العباسيين بمصر يوم فتحها الأتراك للسلطان سليم بالخلافة •

٤ — حماية الحرمين : فقد كان السلاطين العثمانيون حماة الحرمين — الا سبع سنوات تولاهما فيها أئمة صنعاء فى القرن العاشر • وسبع سنوات أخرى تولاهما فيها الوهابيون •

٥ — الاحتفاظ بالأمانات : وهى المخلفات النبوية المحفوظة فى الآستانة سلمت من اغتيال التتار فى بغـــداد • فحملها العباسيون الى القاهرة ، وما زالت فيها حتى نقلها السلطان سليم الى القسطنطينية •

● **مبايعة الخلفـــاء :**

قال « جورجى زيدان » يبين فضل الخلافة على النظم المعاصرة :

فطريقة الخلفاء الراشدين فى انتخاب الخلفاء من أفضل ما بلغ اليه جهد المتمدنين حتى الآن • وهى جامعة بين الجمهورية والملكية والشورى •

أما الجمهورية : فلأن الخليفة كان ينتخب من جمهور القرشيين بلا حصر ولا تعيين ، وهى شورية : لأن الانتخاب يكون بالشورى ، وهى مطلقة : لأن الخليفة اذا قبض على أزمة الملك كان مطلق التصرف

— فى حدود الشرع طبعا — . فلما أضافت الى ذلك شروطها الأربعة التى ذكرناها كانت أفضل أنواع الحكومات على الاطلاق . لأن الحاكم المطلق اذا كان عادلا مع علم وكفاية وسلامة الحواس لم يكن أقدر منه على النهوض بأعباء المملكة وتوسيع نطاقها والتوفيق بين رعاياه .

هـذا الى جانب ما فى طريقتهم هـذه من أدلة التقوى والزهد فى الدنيـا .

● **بدعة وراثة الخلافة :**

ثم قال : خاف معاوية من افتراق الكلمة اذا ترك الأمر بعده فوضى ، فيتطلبه بنو هاشـم ، ولا يرضى بنو أمية تسليمه الى سواهم ، فيئول ذلك الى الفتنة بعد ذهاب دهشة النبوة ، وتغلب طبيعة الملك ورجوع الناس الى العصبية ، فتجنبا للفتنة بايع ابنه يزيد وخوفا من الافتتان عليه بعد موت معاوية طلب له البيعة فى حياته . وتربص ليرى ما يبدو من النـاس فلم ير شرا . وجرى على ذلك خلفاؤه بعده ، الا عمر بن عبـد العزيز . وجرى على ذلك العباسيون والفاطميون وغيرهم من خلفاء المسلمين(١٤) .

وقبل ذلك يقول (١٥) : ان معـاوية جعل الخلافة وراثية فى نسله ، لكنها لم تتعد أولاده ، ولم يخلفه منهم الا يزيد الذى بويع بولاية العهد فى حياته . ولم يحكم الا بضع سنين ارتكب فى أثنائها أمورا كبارا ، فى جملتها مقتل الحسين بن على . ولمـا مات يزيد اختلف الناس على البيعة . وكان له ابن يسمى معاوية (الثانى) ، ولوه وهو لا يرى الخلافة حقا لهم . ومات بعد قليل ، فبايع بنو أمية شيخا أمويا من غير بيت معاوية اسمه مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ ، تولى الخلافة بضعة أشهر ومات . ثم انحصرت الخلافة فى نسله .

---

(١٤) تاريخ التمدن الاسلامى : ١٣١/١ .

(١٥) المرجع السابق : ص ٩١ .

● **نوع المبايعـــة :**

لم تجر الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين على نظام واحد :

(ا) فقـد كان المفروض أن تكون انتخابية ، ولهـذا لم يوص رسول الله (ﷺ) بمن يخلفه ، بل ترك الأمر فى ذلك للمسـلمين فاختاروا أبا بكر •

(ب) ولم يشأ أبو بكر أن يدع الأمر للناس ليختاروا من يشاءون ، فأوصى لعمر بن الخطاب •

(ج) وعنـدما حضرت عمر الوفاة لم يدعها شـورى خالصة ، ولا انتخابية خالصة • بل أوصى لستة نفر من كبار الصحابة ليجتمعوا ويختار الخليفة من بينهم ، وسمى ابنه عبد الله فى جملتهم ولكنه نهى عن انتخابه ، فاختاروا عثمان بن عفان • فلما قتل ـ دون أن يوصى ـ اختار الناس عليا بلا شـورى • فشق ذلك على كثيرين من كبار الصحابة لأنهم كانوا وقت مقتل عثمان متفرقين فى الأمصار • لم يشهدوا بيعة على ، فمنهم من بايع ، ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس • ثم كان ما كان من أمر الفتنة المشهورة •

فلما قتل على أرادت شيعته حصر الخلافة فى نسله باعتبار أنهم بضعة من النبى ، فسألوه وهو على فراش الموت : أنبايع الحسن ؟ فقال : لا آمركم ولا أنهاكم • أنتم أبصر ، أما هم فبايعوا ابنه الحسن • وهـذا تنازل عنها لمعاوية بن أبى سفيان ، فصارت فى بنى أمية •

● **يمين البيعة :**

تناول « جورجى زيدان » يمين البيعة الشرعية وصيغتها فى عهـد النبى ﷺ والخلفاء الراشدين ، ثم أعقبها بذكر ما ابتدعه العباسيون

من الحلف بالطلاق والعتاق ومغلظات الأيمان وأحرجها ، ليستوثقوا من عدم انتقاض المبايعين عليهم ، ويأمنوا الثورة على حكمهم ، فقال :

البيعة هى العهد على الطاعة ، ويختلف نص يمين البيعة باختلاف الدول والأحوال ، وان كان مرجعها واحدا فلما بايع الأنصار النبى (ﷺ) بالعقبة قالوا : يا رسول الله .. انا براء من ذمامك حتى نصير الى دارنا فاذا وصلت فانك فى زمامنا ، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا .

ويمين بيعة بنى العباس منذ طلبها لهم أبو مسلم الخراسانى هى : « وأبايعكم على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله ﷺ . عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق[١٦] والمشى الى بيت الله الحرام على ألا تسألوا رزقا ولا طعما حتى يبتدئكم به ولاتكم » .

وقد اختلفوا فى نص يمين المبايعة ، وفى كيفية الاحتفال بالمبايعة باختلاف الدول ، ولكن الجوهر واحد ، وهو تبادل العهود بين الخليفة ورعيته بالسير على ما يقتضيه الكتاب والسنة ونحو ذلك .

● **تطور صيغته :**

وكان شأنهم فى المبايعة الاختصار كما تكون الدول فى أبسط أحوالها ، وكانت البيعة تتلى شفاها ، ثم صارت تكتب وتحفظ وكانت كلمات قليلة فصارت سطورا عديدة بما أدخلوه فيها من الحشو والاطناب .

وبعد أن صارت الخلافة وراثية كان الخلفاء يبايعون بولاية العهد لأولادهم أو لغيرهم من ذوى قرابتهم . وكانوا اذا رأوا غير واحد من أولادهم أو اخوتهم أهلا للخلافة بايعوا لأحدهم ، وشرطوا أن يخلفه فلان أو فلان .

---

(١٦) أى تعتق عبيده واماؤه فيفقد ملكيتهم ويصيرون أحرارا .

● **العهـــــد :**

والعهد : كتاب يكتبه الخليفة أو من يكتب له ، ويختمه بخاتمـه وخواتم أهل بيته ، ويدفعه الى ولى العهد أو من يتولى أمره فيحفظه الى حين الحاجة ، وقد يحفظه فى مكان أمين فى خزانة أو مسجد أو فى الكعبة كما فعل الرشيد بالكتابين اللذين كتبهما لأولاده بولاية العهد ، أحدهما للأمين ، والآخر للمأمون ، وبعد هذا للقاسم .

ويدعى لولى العهد على المنابر بعد الدعاء للخليفة فيقال : اللهم وبلغه الأمل فى ولده فلان ولى عهده فى المسلمين ، واللهم وال من والاه من العباد وعاد من عاداه فى الأقطار والبلاد ، وانصر من نصره بالحق والسداد ، واخذل من خذله بالبغى والعناد .

* * *

● **تعقيب :**

لم يكتب النبى ﷺ عهداً لأحد من بعده ، ولهذا فان نظام كتابه العهد لولى الخلافة ، أو ولى العهد من مستحدثات الزمن ، دفع اليها معاوية خشية انشـــقاق الرعية عند موت الخليفـــة وخوف اضطراب الأمن اذا لم يكن للناس من يجمعهم على كلمة جامعة فور موت السلطان .

ولمـــا كانت الخلافة قد تسربت اليها أمور شكلية لا تتصل بنظام الحكم ، ولكن بالشكل والتقاليد « الايتيكيت » ، فقد تناولها « جورجى زيدان » ، وتتمثل عنده فى ثلاث :

● **مظهر الخليفة :**

١ ــ **البردة** : أى بردة النبى التى أهداها الى كعب بن زهير ابن أبى سلمى يرتديها الخلفاء .

٢ ــ **الخاتم** : اتخـــذه الخلفاء تشـــبها بالنبى وكان كل من ولى الخلافة يصطنع له خاتما يختمون به الكتب فى أسفل الكتابة وفى أعلاها باطين والمداد ، ثم صاروا يختمون به الرسائل بالشمع بعد طيهـــا . وأول من فعل ذلك معاوية تجنبا للتزوير .

وذكر « البلاذرى » أن زياداً أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم فى أثناء ولاية العراق امتثالا لما كانت الفرس تفعله •

ولما نشأت السلطنة جعل السلاطين علامة السلطنة مثل علامة الخلافة وسموها الطغراء ، وهى نقشة تكتب بقلم غليظ وفيها ألقاب الملك • وكانت تقوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب ويستغنى فيها عن علامة السلطان بيده ، وكانت الدولة السلجوقية تسمى ديوان الانشاء ديوان الطغراء •

ولم يكن الخلفاء ينقشون على خواتمهم أسماءهم ، فقد كان نقش خاتم أبى بكر (نعم القادر الله) ، وخاتم عمر (كفى بالموت واعظا يا عمر) ، وخاتم عثمان (لتصبرن أو لتندمن) وخاتم على (الملك الله) وجرى على نحو ذلك خلفاء بنى أمية وبنى العباس •

٣ ــ **القضيب :** وهو ثالث علامات الخلافة واذا تولى الخليفة جاءوه بالبردة ، والخاتم ، والقضيب ، وظل الأمر على ذلك فى بنى أمية وبنى العباس •

● **شارات الخلافة :**

ويقصد بالشارات العلامات التى تبرز هوية الدولة وانتماء أفرادها وسط الدول الأخرى التى وضعت لها علامات مميزة سواء فى زى رئيس الدولة أو العلم أو التقاليد المرعية ، أو النشيد والسلام الوطنى ، وقد بينها « جورجى زيدان » فيما يلى :

١ ــ الخطبة باسم الخليفة : وهى الدعاء للخلفاء على المنابر فى الصلاة •

٢ ــ السكة والنقود : أى الختم على النقود بطابع من حديد ينقش فيه اسم الخليفة أو السلطان •

٣ ــ الطراز : وذلك أن يرسم الملوك والسلاطين أسماءهم أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير

أو الديباج أو الابريسم ، كأنها كتابة خطت فى نسيج الثوب لحاما وسدى بخيوط من الذهب أو بما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب ، بحيث تصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز — التطريز — للدلالة على أن لابسها من أهل الدولة : من السلطان فما دونه ، كما هى الحالة فى لباس أجناد هذه الأيام ، فترى على بعضهم شرائط القصب والأزرار الصفراء ونحوها من علامات الرتب كرسوم التيجان والسيوف والنجوم ونحوها •

وأول من نقل الطراز الى العربية عبد الملك بن مروان •

وأنشأ الخلفاء للطراز دورا فى قصورهم تسمى دور الطراز ، لنسج أثوابهم وعليها تلك الشارة ، وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ، وهو ينظر فى أمور الصباغ والآلة والحاكة — الخياطين — فيها ، ويجرى عليهم أرزاقهم ويشارف أعمالهم •

ومن هذا القبيل ما كان يسمى فى الدولة الفاطمية بدار الكسوة التى كان قيمة ما يخرج منها من الكسى (٦٠٠ر٠٠٠ دينار) فى العام •

٤ — الهلال فى الدولة العثمانية •

٥ — وكانوا يعدون من قبيل شارات الملك أيضا السرير والمنبر والتخت والكرسى والآلة وهى الألوية — الأعلام — والرايات والموسيقى •

* * *

آثار أتاتورك على الخلافة

قال :«اتيين دينيه»: ونحن لا نستطيع أن نختم بحثنا هذا دون الكلام على تلك الأمور الخطيرة التى قررتها الجبهة الوطنية الكبرى بأنقرة فى سبيل الاصلاح • ونحن نبحث هنا دون تحيز ولا غرض — فى الأثر المباشر الذى أحدثه هذا الانقلاب الكبير •

● **ما دوافع ثورة أتاتورك ؟ :**

وفى ظننا أن الدواعى التى دفعت بحاكم تركيا المطلق الى القيام بهذه التغيرات انما هى واضحة الأسباب ، غاية فى البساطة •

فأول كل شيء رأى مصطفى كمال أن الخلافة قد صارت أداة للسوء في أيدى الأعداء ، فلم يجد بداً من الغائها •

ثم تلك الحرب الصليبية الجديدة التى أماط اللثـــام عنها المسيو « أوجين جونج » وأظهر ما يكنه أعداء الاسلام له من خطير الدسائس وكبير المكائد ، وأنهم يبررون أعمالهم ضد الاسلام قائلين : انه مظهر التعصب الدينى — تلك الحجة الجوفاء التى لم تعد تذكر أمام تعصب الغرب الشديد ، عند ذاك لم يجد مصطفى كمال مناصاً من تحاشى هذه الهجمات فبدأ له أن يتخذ طريقا آخر غير ما كان يتخذ من قبل • رأى أن يفسح المجال لقومه فى أن يأخذوا بالمدنية الغربية ما استطاعوا ، حتى ألزمهم تبديل لباسهم ، واتخاذ الزى الأوروبى ، كما فصل بين الدين والسياسة وأقام لكل منهما قوانينه • وكأننا به يقول : هاأنذا قد أخليت بلادى من روح التعصب التى تدعون وجودها • فاتركونا فى سكوننا ولا تقلقونا تستلبونا راحتنا والا فها أنتم أولاء تثيرون الفتنة باسم الصليب •

على أن الأمر الذى يهمنا فى موضوع هذه الاصلاحات الجريئة هو معرفة قدر الأثر الذى أحدثته فى العالم الاسلامى •

● نتـــائج الثورة :

ليس غريبا أن تتسلط الشكوك والانفعالات النفسية على الكثيرين بالنسبة لهذه الاصلاحات • وفى تقديرنا الخاص أنه كان فى استطاعة أتاتورك أن يصل الى نفس النتيجة التى وصـــل اليها بالنسبة لموقفـــه السياسى أمام أوروبا المسيحية ، وهى التى لن تنقطع عن أن تكون عدوته الدائمة مهما فعل ، ومهما تقرب منها ، ومهما تغرب وتفرنج • نعم كان فى استطاعته أن يصل الى غرضه ذاته ، وأن يقوم فى الوقت نفسه بالاصلاحات التى تقتضيها المدنية الحديثة • كل ذلك دون أن يخرج عن حظيرة الشريعة الاسلامية السمحة الواسعة •

وان المغالاة فى بعض هذه الاصلاحات . والأخذ بها الى حد بعيد المدى ، قد أفقدت مصطفى كمال عطف الكثيرين من المسلمين الذين أيدوه بحماسة عظيمة فى أول عهده ، وهو بافراطه هذا قد خسر من الوجهة السياسية ، كما أنه لم ينل عطف الأوروبيين أنفسهم ، وهم الذين اتخذهم لنفسه الأمثلة المختارة ، والنماذج التى أراد تقليدها . ولا يعوزنا البرهان على ذلك . فان المسيحيين أنفسهم قد وقفوا أمام هذه الاصلاحات موقف الخوف الممزوج بالغيظ والغضب ، ذلك لأنهم أعداء الاسلام من قديم الزمان .

وقد وضح الحق : كما أنه قد ظهر للعالمين موقف الغربيين الحقيقى فى الشرق ، وأنهم فيه أهل التعصب والغموض ، على أنهم قد نالوا جزاء ذلك ما فقدوا من النفوذ الكبير الذى كان لهم فى تركيا أخطر الممالك الشرقية الاسلامية .

* * *

● **محاولة فتكنة الخلافة :**

وقال « باول شمتز »[١٧] : قرر المجلس الوطنى فى تركيا فصل الخلافة عن السلطة ، فطبع بذلك الخلافة بطابع الروحانية وحصرها فى دائرة السلطة الفكرية الخالصة ، فأصبح مجالها مقصورا على الناحية الروحية ومسائل العبادة ، وهذه صورة لم تعرفها الخلافة من قبل ، ولم يعهدها المسلمون فى خليفة نبيهم محمد (ﷺ) ولم نقرأ عنها فى تاريخ الاسلام .

أراد الوطنيون ابعاد الخليفة عن المجال السياسى فكرسوا جهدهم لتحويل الخلافة الى فاتيكان — أرادوا فتكنة الخلافة — ، ولكن المحاولة باءت بالفشل ، لأن الخليفة الجديد المعين وهو ابن آخر سلطان لتركيا لم يقبل هذا التحديد للسلطة اطلاقا ، وعارض اتجاه القوميين

---

(١٧) الاسلام قوة الغد العالمية ص ١٥٨ — ١٦١ .

الرامى الى عزل الخلافة عزلا كليا عن أمور الدولة السياسية • وأدى هذا الصدام بينه وبينهم الى هروبه من البلاد ، ومنذ ذلك الوقت تيتمت الخلافة لأول مرة فى تاريخ الاسلام •

● **غلطة شيوخ الأزهر الرسميين :**

فجر هروب الخليفة موجة غضب فى جميع أنحاء العالم الاسلامى اذ لا يقوم بالغـاء الخلافة وطرد الخليفة الا حكـومة تنصلت من الاسلام ••• ولكن سرعان ما هدأ الغضب •• وكان السبب فى ذلك فتوى خرجت من الأزهر •• تقول : ان ما قامت به الحكومة التركية انبثق من مبدأ لا يتعلق اطلاقا بالمسائل الدينية ، بل بأمر قومى يخص الدولة التركية وحدها •

● **غسيل المخ قبل الغاء الخلافة :**

وتولى رجال العلم مهمة تغيير مفهوم الخلافة التركيـة فى عقول المسلمين ، ذاهبين الى أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا أتراكا ولم يكن سلطانهم معترفا به فى كل أنحاء العالم الاسلامى [١٨] •

● **محاولة لاستعادة خلافة راشدة :**

غير أن كل الدوائر الاسلامية المعتدلة كانت ترى أن الاسلام فقد ـ بمحو الخلافة من تركيا ـ رمزا ذا أثر قوى فى الوحدة الدينية والأدبية فى العالم الاسلامى [١٩] ، ولذا اتجهت الآمال الى اعادة الخلافة بثوب مغاير للخلافة التركية ، وبصيغة غير خاضعة للاقليمية بحيث تكون فوق الارتباط بالمصالح القومية •

---

(١٨) الاسلام قوة الغد العالمية ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .

(١٩) ومن هؤلاء المناصرين للخلافة مع النصح للخليفة والولاة بتوة .. الامام محمد عبده ، وقد نقلنا رأيه هذا فى كتابنا « الضالون كما صورهم القرآن » الفصل الثانى ـ موضوع « اقامة خليفة للمسلمين » .

● **محاولة الانجليز احتواء التطلع للخلافة الراشدة :**

وأعلن الشريف حسين والد الملك فيصل والأمير عبد الله — ملك شرق الأردن فيما بعد — فى مارس ١٩٢٤ اطلاق لقب الخلافة على نفسه — معتقدا أن سلطته المدنية على الأماكن المقدسة ، وكذا نسبه ، يلعبان دورا فى جمع المسلمين حوله • غير أن أبهة الخلافة لم تدم سوى نصف عام ، فقد اضطر « خليفة أوبريت الادارة الانجليزية » — كما سماه أحد المؤرخين الانجليز — أن يتقهقر أمام الهجوم الذى شنه « ابن سعود » على الحجـــاز •

ويفسر المراقبون خذلان العرب والمسلمين « حسيناً » بأن وقوفه مع الأوروبين وقتاله فى صفوفهم ضد الباب العالى أحدث ردود فعل لدى الرأى العام فى العالم الاسلامى ، فاستنكره كثير من المسلمين وفسره البعض بأنه خروج عن الاسلام ، لأنه قتال فى صفوف الكفار ضد المســلمين •

بعد أن اختفى « حسين » انتقل لقب جلالته الى أكبر أبنائه « على » الذى تغاضى عن لقب الخلافة الا أن مملكته تقوقعت فى جـــدة ، ثم اضطر الى ترك الميدان لابن سعود الذى أدرك أن قيام مثل هذه الخلافة لا يكون له معنى ولا قيمة الا اذا اعترفت بها مراكز النفوذ السياسى والروحى فى شتى الأقاليم الاسلامية ، وبهذا لم يقع فى الخطأ الذى وقع فيه « حسين » من قبل [٢٠] •

● **الصيغة المقترحة للخلافة الجديدة :**

ثم يقول « شمتز »[٢١] : « لو تتبعنا الصحافة الاسلامية لتبين لنا مدى عاطفة الشعوب الاسلامية نحو الخلافة •• وأنهم يعملون بدون كلل للوصول الى عودتها • ولكن على أى صورة يريدونها ؟

---

(٢٠) الاسلام قوة الغد العالمية : ص ١٦٣ .
(٢١) المرجع السابق : ص ١٦٦ .

يبدو للمطلع فى هذه الآونة أن المسلمين يرون أن تكون رمزاً معترفا به من الجميع لوحدة العقيدة • وعلما للمصير المشترك — ومنارا تتوجه اليه أنظار المسلمين ، ونجما يتلألأ فيكشف بهاء الاسلام ورونقه فى جميع أرجاء العالم وينير للمسلمين الطريق لاستعادة مجدهم وسيادتهم على هذه المنطقة الحيوية من العالم •

ويزيد هذا المعنى وضوحا ما قرأناه فى احدى الجرائد العربية من المقارنة بين الوضع الذى ينبغى أن تكون عليه الخلافة المقبلة وبين وضع ملك انجلترا ، فقد وضح الكاتب أن الخليفة على رأس العالم الاسلامى يشبه الملك الانجليزى على رأس المملكة المتحدة ، اذ ينبغى أن يكون الخليفة ممثلا لوحدة تتكون من الدول التى تنضم مختارة الى وحدة اسلامية وتنظم سياستها مع غيرها من الدول الاسلامية على أساس اسلامى وتتحرك دوليا فى اطار دينى أخوى (٣٣) • وبذلك يكون الخليفة قاعدة لقيام وحدة اسلامية أو بتعبير أدق امبراطورية اسلامية » •

* * *

● ما نشأ عن ضياع الخلافة :

لقد تسبب عن ضياع الخلافة الاسلامية كثير من المتاعب للمسلمين بينها مؤرخو الغرب ونجملها فيما يلى :

١ — الحكم المستبد :

يقول « برنارد لويس » : فقبل ذلك التاريخ كان فى الشرق الأوسط نظام سياسى مستقر • فالشاه يحكم ايران • والسلطان هو عاهل المملكة العثمانية التى تشمل كل ما بقى من الشرق الأوسط ، وقد لا يكون كل السلاطين الذين تعاقبوا على الحكم محبوبين من رعاياهم ولكنهم كانوا موضع **احترام** •

والأهم من ذلك أنه لم يكن هناك خلاف على مشروعية الحكم •

---

(٢٢) ويقيم شرائع الاسلام داخليا .

فالسلطان هو الحاكم بلا منازع لأنه عاهل لآخر خلافة اسلامية تضم جميع مسلمى العالم تقريبا ، ثم عزل السلطان وهدمت الخلافة وقام مقامه عدد من الملوك والرؤساء والديكتاتوريين الذين دبروا لمدة معينة أمرهم وربحوا تصفيق وتأييد شعوبهم ولكنهم لم يكونوا أبدا موضع الرضا التام والقبول الطبعى والولاء الأكيد الذى كان ممنوحا لحكومة السلطان الشرعية ، وهذا الولاء والقبول والرضا جعل السلطان غير محتاج للضغط والعنف والارهاب أو الديماجوجية السياسية فى الحكم .

يعنى ما ينفق على الدعاية للسلطة .

٢ — فقد هوية المسلم :

« وبضياع الشرعية والولاء خسر أهل الشرق الأوسط « هويتهم الواحدة » القديمة ، فبعد أن كان كل مواطن عضوا من أعضاء امبراطورية اسلامية كبيرة لها ألف سنة أو تزيد من التراث والتاريخ ، وجد النساس أنفسهم مواطنين لسلسلة من الدول التابعة والوحدات السياسية الجديدة المفتعلة والتى تحاول الآن ايجاد جذور لها فى ضمير الشعب وولائه ، وصاحب نسف وانهيار النظام السياسى القديم على أية حال انحلال اجتماعى وثقافى مواز له .

٣ — ظهور ظاهرة التسيب :

وربما كان النظام القديم فى حالة تفسخ ولكنه على أية حال كان قائما بوظيفته حيث كانت الولاءات والمسئوليات واضحة الحدود والمعالم ، تجمع جميع فئات الشعب فى اطار واحد .

٤ — الشعور بالغربة فى دولة المؤسسات :

ثم دمرت الأساليب القديمة وسخر من القيم القديمة ، ثم أهملت وقام محلها مجموعة من المؤسسات والقوانين والمقاييس الوضعية المستوردة من الغرب ، والتى بقيت لمدة طويلة غريبة عن أحاسيس وآمال

المسلمين فى الشرق الأوسط ، بالاضافة الى كونها تافهة بالنسبة لحاجاتهم [٢٣] .

٥ ــ تغيير النظام الاجتماعى للمرأة بما يهدم الشرائع :

ويقول « جان بول رو » فى كتابه « الاسلام فى الغرب » فى فصل « تغريب الاسلام » : وكانت تركيا « الكمالية » أول من فكر فى تغيير نظام المرأة ، وكان هذا يعنى معارضة التوارة فى سفر التكوين « والى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك » [الاصحاح الثالث ١٦ ــ ١٧] ، ومعارضة القرآن **« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم »**[٢٤] .

٦ ــ محو الشخصية الاجتماعية لتركيا :

يقول الدكتور «يوسف القرضاوى» : نشرت احدى جرائد مصر مقالا لكاتب ألمانى كبير يخطىء فيه مصطفى كمال (باشا) فى اكراهه لقومه الترك على تغيير زيهم الوطنى .. واستبدال البرنيطة به ، وانما خطأه تخطئه صديق ناصح لا عدو كاشح وقال[٢٥] : ان هذا ينافى غرضه وهو تكوين القومية التركية .

« ونحن نظن أن مصطفى كمال باشا ــ وان لم يكن من علماء الاجتماع والأخلاق وطبائع الشعوب ــ لا يجهل أن المحافظة على المشخصات القومية مما يقوى تكوين الأمة ، وأن تقليد شعب لآخر يراه أرقى منه يضعف قيمة المقلد فى نظر نفسه ، ويحقرها فى قلوب أهلها ، ويرفع منزلة الشعب الذى قلده بقدر ذلك . ونعتقد أنه يتعمد هدم جميع مقومات الشعب التركى ومشخصاته ــ ما عدا اللغة ــ لأنها

---

(٢٣) الغرب والشرق الأوسط ص : ٦١ تعريب الدكتور نبيل صبحى .
(٢٤) النساء : ٣٤ .

(٢٥) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا : يوسف القرضاوى ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

اسلامية أو مستندة الى الاسلام ، وهو يريد أن يسله من الاسلام كما تسل الشعرة من العجين ان أمكن ، والا انتزعهم منه كما ينتزع الصك ذو الأضلاع من الصوف ، أو انتزعه منهم كما تنتزع الروح من الجسد .

« وقد بحث الذين بثوا هذه الدعوة فى الترك من الملاحدة الروسيين وغيرهم عن مقومات وشخصيات تركية أو تورانية يستبدلونها بالاسلام ، حتى عبادة الذئب الأبيض الذى عبده سلفهم من همج الوثنيين فلم يجدوا الى ذلك سبيلا فاختاروا التشبه بالافرنج ، ولا سيما أفسدهم دينا وآدابا كاللاتين ، بحجة الحضارة والترقى العصرى وسموه التمغرب ، ونحن نسميه التفرنج ، حتى ان بعضهم يستحسن استبضاع نسائهم من الافرنج بالحلال وبالحرام ، لادخال دمهم — الشريف المدنى — فى دم الشعب التركى — الفاسد — لاصلاحه .

« فظهر بمجموع ذلك أن هؤلاء الزعماء الدخلاء يريدون افساد هذا الشعب التركى بكل نوع من أنواع الفساد الجسمى والعقلى والنفسى ، وتكوين شعب آخر فى بلاده مذبذب بين أمشاج الشعوب ، روحه غير روحه ، ودمه غير دمه ، وأخلاقه غير أخلاقه ، وعقائده غير عقائده ، فيكون كلغته التى يسمونها التركية وهى لغة هذبها الاسلام كما هذب أهلها ، بما دخل فى مادتها من الأسماء والأفعال العربية وكذا الفارسية ، وهم يريدون الآن أن يفعلوا بها ما يفعلون بأهلها وان لم يبق من لغة قدماء الترك بعد أن تتفرنج وتتمغرب معهم وتكتب بالحروف اللاتينية كما هو مقرر عندهم ، الا قليل ، وما يدرينا بعد ذلك لعلهم يغيرون اسمها أيضا ؟ .

٧ — فقد الزعامة الدولية والرابطة الملية والفضائل الاسلامية :

« ومن الثابت فى سنن الاجتماع أن « تغيير القوانين والنظم والأزياء لا يغير طبائع الأمم — كما يقول الدكتور «غوستاف لوبون» — فان اللاتين الجمهوريين كاللاتين الملكيين فى تشابه حكومتهم وطباعهم . حتى

ان الذين مرقوا من الدين منهم لا تزال التربة الكاثوليكية الموروثة هى الحاكمة على قلوبهم وأرواحهم بعصبيتها ، وانما فقدوا من الدين فضائله فقط ، وكذلك السكسونيون تشابهت حكومتهم الملكية فى بريطانيا وحكومتهم الجمهورية فى الولايات المتحدة كما تشابه أهلها — فالترك يفقدون بهذا التفرنج اللاتينى ما بقى فيهم من فضائل الاسلام ورابطته الملية وما كان لهم من الزعامة فى مئات الملايين من البشر ، ثم لا يقدرون على التقمص من الوراثة القومية التى طبعتها الأجيال والقرون فى أنفسهم •

● الاسلام والترقى :

« فالغرض الأول لهم الآن التخلص من الاسلام بحجة الترقى العصرى ، وما فى الاسلام شىء مانع من الترقى الذى يطلبونه ، وأساسه القوة العسكرية والثروة والنظام بل الاسلام يهدى الى ذلك ، ولولاه لم ينل العرب عقب اهتدائهم به من القوة والحضارة ما فاقوا به جميع الأمم • وظلوا كذلك الى أن سلبهم الأعاجم سلطانهم بالقوة الهمجية ، ونال الترك وغيرهم به حضارة وملكا لم يكن لسلفهم مثلها • ولا ما يدانيها ، ولو أنهم فهموا الاسلام فهماً استقلاليا باتقان لغته والاجتهاد فى شريعته ، لملكوا به الغرب مع الشرق ، ولسبقوا جميع شعوب الافرنج الى العلوم والفنون والصناعات ، وسائر أسباب القوة والسلطان كما فعل العرب من قبلهم ، وهذا ما يطلبونه الآن بترك ما بقى لهم من تقاليد الاسلام ويتوسلون اليه بتقليد الافرنج فى زيهم وفجورهم • قبل اتقان شىء ما من علومهم وفنونهم ، والوصول الى مثل قوتهم وثروتهم » •

* * *